

الذئب

قصة بقلم أبو بكر عبد الظاهر

الذي يجرها اسمه في وضوح . واستمر زحفي . وتخطيت الفاصل بين حقلي وحقلهم . ولعلت المياه التي تسقي زرعهم في عيني . وخيل الي انني اسمع صراخ زرعي الجاف يستحلفني ان يكون الثار وحشياً . وطنت الاصوات متداخلة في رأسي . وتشابكت امامي المرثيات . ولكنني تقدمت . وصلت الى شجرة الجميز الكبيرة ، وكمنت خلف جذعها . والان . . . ارى صيدي في وضوح . وكل الظروف مواتية لدخول المعركة . تلك هي الساقية امامي . معلق بها الثور . وعلى بعد خطوات منها المزدود والعجل الصغير يأكل في انتظار دوره . والشيخ ابراهيم ، اكبر اولاد رضوان ، طويل نخيل ، شمر عن ساقيه ، وثني يده فاسه ، واقدمه غائصة في الماء . ينظف الجري ويحول المكسر . يساعده اخوه الاوسط حامد ، ضخم متين البناء . بطيء الفهم . بطيء الكلام . بطيء الحركة . منحرف هو الاخر على فاسه في بلادة . اما الثالث ، وهو اصغر الاخوة ، بيومي . . . جريء وقح . لا يخاف احداً . ويسخر من كل شيء . وكان صديقي ، ورفيق طفولتي . وكنت احبه . كان جالساً على الارض بجوار المزدود والعجل ، وفي يده بندقيته عتيقة ، ذات طلقة واحدة . كان ظهره لي ، وقرباً من مرمرى بندقيتي . انه اخطرهم ، ويجب ان ابدأ به . بندقيتي محشوة ، بها تسع رصاصات مستعدة ، للانطلاق . يدي تهتز ، وتتردد في رفعها . كم اود ان انسحب . ولكن . . . فسات الاوان . والرجوع الان اصبح عسيراً . بشرفي يا بيومي يا غادر لن اترجع . استبحت لنفسك ان تسرق مني ماء زرعي انت واخوتك . اعمتك القوة والانانية عن صداقتنا . لو عذرت اخويك الكبيرين فلن اعذرك انت . انت صديق طفولتي . اكلنا معا . ولعبنا معا . ونمنا معا على تراب هذه الارض التي تقتلها انت الان ، طوال هذه السنين ، خلال عمرنا الواحد . هل نسيت يا بيومي ذهابنا الى المدينة معا لنجلس في المقاهي ، ونشاهد ملاهيها ، ايام الاعياد وفي المواسم . انني لا انكر يا بيومي انك وقفت بجانبني مواقف فيها رجولة ومودة . ولكن لماذا تسرقني الان ؟ نعم . لا انكر عليك انك ضربت معي ذلك الرجل البلطجي الذي تحرش بي على المقهى في البندر ، ليسرق حافظة نقودي . نعم ، واذكر ذلك الموسم اللعين الذي اكلت الدودة محصول قطننا فيه ، وظلت انت بجانبني طوال هذا الموسم الذي احسست فيه بالضياع عندما كدنا ان نفس . اذكر انك كنت تصر على ذهابنا الى البندر كعادتنا ، وتستضيفني على حسابك . واذكر كلماتك وانت تربت على كتفي ونحن نجوب شوارع المدينة : « يا واد يا صابر ولا يهكم . ربنا معانا . احنا كلنا ناس غلابة يا صابر ، عمرنا ضايع مع البهايم والارض . لازم نفرج عن نفسنا . لازم يا جدد انت نشوف حاجات جديدة ، الحاجات اللي ما عرفناهاش قبل كده . لازم نعيش يا صابر . والا ايه . ايه يعني لما الدودة كلت القطن . احنا عملنا اللي علينا . والحاجة دي بتاع ربنا ، اسمع يا صابر ، احنا اخوان والمليان فينا ضروري يكب على الفااضي . » . كانت كلماتك لي يا بيومي خير عزاء لي في محنة الدودة اللعينة . ولكن . . . لم تسرق مني الان ؟ . . . كانت الدودة هي عدوي حينذاك . اما الان . . . فعدي هو انت يا بيومي . جرمك عظيم لا يفقره عذر ابداً . « وهل بعد قتل الزرع جيرة ؟ » . العرق غزير ، واحس بالصيق والقلق . يجب ان ابدأ الان . حركت يدي بالبندقية وصويتها نحو ظهر بيومي ، واحكمت

انتصف الليل ، وجثم على القرية صمت كئيب . وكل شيء حولها مظلم وساكن ، اللهم الا نسيمات باردة تحاول ايقاظ الاشجار الصم . وحاولت ان اخفف من وقع اقدامي عندما توغلت في المزارع ، فانا في حاجة ماسة الى التلاؤم مع هذا الصمت المطبق . وكان ادنى صوت تحدته خطواني ، او احتكاك جلبابي بالشجيرات يفزعني . وامعانا في التخفي والحذر اخترت طريقاً اخر اطول من الطريق المعتاد ولا يتوقع احد ان اسلكه . وكلما حاذيت ارضاً مكشوفة او زراعة قصيرة احنيت قامتي واسرعت الخطى . ووقفت الهت تحت شجرة كبيرة ، والعرق البارد يتصبب من جبهتي ، اعبراً وجهي الى اسفل ، مخلفاً لمسات من القشعريرة .

ما هذا الخوف الذي يبتابني ؟ انني لست جديداً على ذلك الموقف ، فلما خرجت الى الحقول في الليل ، وفي الفجر ، ومنذ الصغر ، فلم يراودني الشعور بالفزع الا الان فقط . وهذا الطريق بالذات كثيراً ما سلكته احمل الفساء لابي عندما يسهر في خدمة الارض . كنت ارى في السكون والظلام سحراً ووقاراً ، واحس انني جزء من الاشياء الساكنة التي حولي ، فاسري في خطوات رزينة متكررة . اما الان ، فاشعر باحساس مختلف تماماً . ارى الظلام مقبضاً ، والهدهد مشيراً . وانخيل الشجر والزرع شهوداً تشير الي وتصرخ : « اننا نراك » .

عبرت ذهني هذه التصورات بسرعة وانا واقف مستتر ، التقط انفاسي الضائعة ، وقبضت على بندقيتي بقوة . واحسست انها الان صديقي الوحيد . وكل ما عداها عدو يتحداني . حتى اولاد رضوان ، جيرانني في الحقل ، يتحدوني . ولكن . . . معي بندقيتي ، الرفيق الذي لا يخون . ما هذا الخوف ؟ لن اترجع . حتى انتم يا اولاد رضوان ؟! اننا شركاء في الساقية ، ودوري في الري الليلة . وزرعي ظمان . سيقنتله الجفاف . لقد انتظرت دوري في الساقية على احر من الجمر . اتأخذون مائي عنوة يا اولاد رضوان ؟! انكم اذن متآمرون على خرابي وقتلي . لو قتلتموني لكان اهلون علي من قتل الزرع . لا . . . لن اترجع . الانهم ثلاثة ؟ وهل يحق لكل ثلاثة ان يدوسوا على رجل وحيد؟! ان ابي شيخ مسن . لا خطر له . فاسقطوه من حسابهم . انهم جبناء . تقلبوا اهانة عمر الاقطع وهم اذلاء ، لانه رجل خطر . من رجال الليل وقطاع الطريق . ثم يستضعفونني انا ؟! لا . . . ان هذا لن يكون . انني ومعني بندقيتي كفاء لهم . نعم كفاء لهم . بل كفاء لاكثر منهم . انها اول مرة في حياتي اخرج مستترا بالليل لاخذ حقي بيدي . ولكن هذا لا يهم . يجب ان اثبت « واستمر حتى النهاية . وعلى كل حال ، لن تكون هذه اخر « طلعة » لي . سوف اخرج مثلها كلما احسست بالظلم . نعم . . . سوف استمر . . .

وسكنت دوامة الافكار في رأسي . وشعرت بالسكون الذي حولي . وعادت الي قشعريرة الرهبة . فتركت الشجرة ، وبدأت الزحف على بطني ، بعد ان اعددت البندقية للانطلاق . وكلما اقتربت من زراعة رضوان ، اسرعت ضربات قلبي ، وعلا صرير الساقية ، التي تسرق مني حياة زرعي . هل اترجع ؟ لا . . . سوف استمر ، فالصيد قريب ، والظلام يسترني ، والسكون منتشر . وصوت الساقية ونعير الفحل

التصويب ... وهنا .. سمعت صوتا يقربني شل جركتي ، وامات اصبعي على الزناد ، صرخة طويلة حادة تشق سكون الليل ، وتطفئ على ازليز الساقية ..

هذه الصرخة اعرفها حق المعرفة ، وبيومي يعرفها ، واخواه ، وكل سكان قرينتنا يعرفونها . كانت نداء الاجرب . ونحن نميز عواء الذئب الاجرب من بين اصوات الذئاب جميعا . وقف بيومي ووضع رصاصه في بندقيته . واسرع اخواه مهرولين ، ووقف بجواره . والقي ابراهيم فأسه ، وتناول منجلا يلعب سنه ... وقف الثلاثة في صف واستعدوا ، اكبرهم عند الساقية ، وبيومي في الوسط ، وحامد بجوار العجل الصغير . انهم الان اسهل اهداف لبندقيتي المصوبة اليهم ، لا ادري لماذا لا اضرب ؟ ان وجود الذئب هنا لا يهمني ، فكلانا ذئب يطلب فريسة من آل رضوان . ومررت لحظات كلها تربع وتحفز .. اصبعي لا يضغط الزناد ، والاخوة لا يتحركون . والذئب لا يظهر .. لا بد ان مع الذئب قطيعا ، في الشتاء لا تخرج الذئاب الا قطعانا « ودائما يقودها الاجرب الشرس .. انه اضرى وامكر ذئب عرفته ضواحيننا حتى الان .. لكسل مزارع في الناحية ثار عنده .. انا نفسي ذقت على يديه مرارة الاعتداء قبل ان اذوقها من بيومي واخوته . ولخوفي منه ، ومتابعتي لحوادثه عرفت عنه كل شيء .. عرفت عواءه المجلجل ، حادا في اوله ، متوججا خشنا في اخره . وعرفت شكله ، كبيرا اسمر ، اذنه اليمنى نصفها مقطوع من اثر رصاصه طائسة . وبجلده بقع كبيرة من الجرب الباهت ، وهو دائما يمشي امام القطيع ويحدد المعركة . وقدرت معركته المقبلة مع اولاد رضوان ، وصح تقديري .

وفي لحظة خاطفة اندفع من النقطة التي توقعتها ذئبان منطلقان نحو الساقية والثور ، وفي اعقابهما ذئبان آخران يهاجمان العجل والمذود .. وارتيك الاخوة وتخبطوا في اي الاتجاهين يقاومون . وعلا صراخهم « الحق يا حامد .. فين البندقية يا بيومي .. اطلق يا جده » واطلق بيومي رصاصه محكمة اصابت واحدا من مهاجمي الساقية . وانشغل في اخراج رصاصه اخرى من جيبه ليحشو بها البندقية . وحامد يضرب بالفأس ضربات عشواء ، لا يعلم هل تستقر على الذئاب ؟ ام على العجل ؟ انه يضرب فقط ويصبح .. وابراهيم يقفز ويسب ، ومنجله في يده يعلو ويهبط . اخذت الحوادث تمر بسرعة ، والذئاب المهاجمة تزوم وتشب ، ثم تتراجع بظهرها وتشب من جديد . والثيران تخور .. الاصوات مختلطة وسريعة وتبدد السكون . وانا ارقب المعركة اقاوم شعورا جارفا يدفعني الى الاشتراك مع احد الجانبين . انني اقدر ان عدد الذئاب كثير لا شك ، ويخيل الي انهم سيكفونني قتل الاخوة . ومع ذلك لا اطيق المشاهدة ، اريد ان اتحرك .. ولكن اين اتحرك ؟ وماذا اعمل ؟ ألم تكن هذه بغيتي ؟ .. ألم اخرج عامدا لهذا الغرض .. ان الذئاب الان يريحونني ويتولون العمل بدلا عني . الا يرضيني هذا ؟ ما بالي الان يدفعني هذا الشعور القوي ان ادخل المعركة .. يهمني الفريق الذي انتصر له ، واحارب معه . ببندقيتي مصوبة الى الفريقين واريد اطلاقها وكفى ..

وجاءت الصرخة الثانية للاجرب تعلن عن المعركة الكبيرة .. ومع الصرخة لمحت ، بنفسه ، باذنه وجلده ، وعيونه المشعة المتقدة ، يهاجم الوسط ، وخلفه فريقان يهاجم كل منهما جبهة . وقفز الاجرب نحو بيومي ولم يكن قد انتهى من حشو بندقيته بعد ، فاجاه الذئب قبل ان يستعد له . وطوح بيومي بالبندقية كالعصا فالقت الاجرب بعيدا . ثم ارتبك ، هل يكمل حشوها ؟ ام يستعملها هكذا ؟ وثنى الذئب ظهره واستعد للقفزة التالية : وانتابني قلق مفاجيء . وتأكد لدي انها ستكون القفزة الاخيرة وينتهي بيومي . وانني نفسي قد اكون الفريسة التالية للاجرب . ودق قلبي دقات سريعة عنيفة ، واندفعت الدماء ساخنة الى رأسي ، واهتز بدني كله . وقبل ان ينفرد الذئب من تقوسه ، وبيومي مذهول مرتبك وجدت فوهة بندقيتي - بلا ارادة - تتجه الى

قلب الذئب ، واصبعي يضغط الزناد . وسقط الاجرب يعوي في الم واحتجاج ، وسقطت معه فطرات سريعة من دموعي .

ازداد زهول بيومي وصرخ « ايه ده .. مين هناك ؟ » ورددت مأخوذا « انا صابر يا بيومي ، شد حيلك ، » ولم نتكلم . وتوالت رصاصاتي شديدة الفتك محكمة التصويب على قطع الذئاب . وتمكن بيومي من حشو بندقيته واطلقها واعاد حشوها مرتين او ثلاثا . وتشجع الاخوان الكبيران وعلا صراخهم .. وافزعت الطلقات والصراخات ، واستفائة الذئاب الجرحى بقية القطيع فهربوا مخلطين قائدهم العتيد على ارض المعركة يشن انات الفراق . وانتهى القتال .

رمى بيومي بندقيته « واقبل نحوي في خطوات متعثرة وجلية . وفي صوته نبرات كلها حجل واشفاق واعتذار خفي ، « تسلم ايديك يا صابر ، شهدت لك انك احسن ضريب نار في البلد . » ولم يجد ما يقوله فسكت . ووقفنا جميعا نحن الاربعة ، لم نتبادل كلمة . ولم نعرف ماذا نقول . وعرفوا لماذا جئت وعرفت اعتذارهم ... واحسسنا بتقارب شديد . كانت الذئاب متناثرة متباعدة ، ربما ستة او سبعة لا اذكر . وكان الاجرب جريحا يحاول الزحف بمقدمته في جهد ومشقة ، فرفع حامد الابله فأسه في بطنه وهوى بها في عنف الجبابة ففصلت رأس الذئب عن جسده وتبسم في ارتياح ، كأنما ازيح عن صدره كسابوس ثقيل او كانه القى بكل حقه وغضبه مع هذه الضربة الريحية .

التفت الشيخ ابراهيم الى بيومي قائلا : « تعال احرسني يا بيومي ، لما نروح نفتح اليه على غيظ صابر . وانت يا حامد حول المكسر على اليمين . وخذ بالك يا صابر من الجهائم . »

وذهب الاخوة الثلاثة ، ووقفت وحدي .. انظر اليهم تارة ، وتارة اخرى انظر الى الذئب .

ابو بكر عبد الظاهر

صدر حديثا

أقول لكم ..

للشاعر

صلاح عبد الصبور

طبعة جديدة من ديوان احدث

ثورة في الشعر العربي الحديث

منشورات دار الاداب

الثن ٢٥٠ ق. ل